رجـــــل المـــــاء

فـــــوزية العـلـوي*

دخل الرجلُ في الماء. هو لا يَعلم كيف يقع ذلك، ولكنّه كلّما دخل هذا المكان وجد نفسَه في الماء، ويتبلّل إلى العنق. لكنّه لا يختنق ولا يَغرق. بل يتنفّس بيُسر كبير، ثمّ يخرج محاولاً إخفاء آثار البلل باللاّمبالاة، فيمرّ أمام الناس متصنّعًا الغباءَ، والماءُ متجدولٌ بين قدميْه تاركًا أثرًا طويلاً من القطرات على الرصيف. لكنّه لا يأبه، ويعوّل على الشمس والهواء، وكلّما عاد إلى بيته نَشَرَ أثوابَه وأوراقَه الشخصية والنقدية لتجفّ، وربّما أشْعَلَ موقدَ الغاز ليحقّق الجفاف السريع. ولكنّه صار يحتاط فيما بعد، فصار كلّما دخل هذا المكان تجرّد من أوراقه. وخطرتْ بباله فكرة، وإنْ لم يحقّقها بعد، وهي أن يرتدي ملابس واقية من الماء.

عندما يَدْخل، يَنْغلق البابُ وراءه بصفة آلية، وفي أغلب الأحوال يَنْسى لماذا أتى. وتُطِلُّ المرأةُ ذاتُها بعينيْها الواسعتيْن، تَدْفع الكتلةَ ذاتَها أمامها بجهد واضح. إنّه لا يَعْلم أين تأخذها: فهي في كلّ مرّة تختفي في ممرٍّ عائم بالهيئة نفسها وهي تجرّ الشيءَ المكعّب نفسَه. يودّ في كلّ مرّة أن يسألها إنْ كانت تريدُ معونةً، لكنّه لا يَفْعل، بل يجد نفسَه ينتظر دائمًا ولا يَدري بالضبط ماذا ينتظر.

لا يجد مشقةً في أن يغادر عندما يشاء: فالباب مرنٌ ويسيرُ الفتح. تَظْهر الأرقامُ ذاتُها كلَّ مرّةٍ في السبّورة الضوئية: أرقام كما في البورصة أو في المطارات، وسهامٌ حمراءُ تعلن عن اتّجاهات مختلفة. وتأخذ الأرقام في التحرّك السريع حتى تصبغ خطًّا ضوئيًا متّصلاً، فيصيبه الدُّوارُ ويُغْمض عينيْه ليرى الكرسيَّ الأصفر الطافي فوق الماء، فيجلس عليه ويعابث النبتة الخضراء التي تَنْبت في السّطل الكبير الأبيض، ويُجْهد نفسه في معرفة نوعها فلا يُفْلح، وأحيانًا يَختلط الأمر عليه فلا يَعْلم إنْ كانت حقيقة أو وهمًا.

يخرج الرجلُ ذاتُه محمّلاً بالورق، الورق الذي لا يتبلّل أبدًا، يتبعه رجل يَحْمل ورقًا هو الآخر. يناديه فيتوقّف، يقول له شيئًا وهو يشير إلى السبّورة الضوئية. يودّ لو سمع ما قاله الرَّجل ليَعْلم على الأقلّ في أيّ فضاء هو. لكنّ صوت الرّجل لا يصل، يتبدّد في الماء. هكذا ظهر الأمر له: فقد أَبْصَرَ الفقاقيعَ تخرج من فيه ومنخريْه وتتلاشى في المساحة الزرقاء التي أمامه.

يغيب الرجلان. تظهر المرأةُ ثانيةً تَدْفع الكتلة وهي تبكي. عيْناها بدتا أكثر اتّساعًا وشعّ فيهما حسن غامض. شعر بقلبه يتلاشى: عينان كهاتيْن ليستا مصنوعتيْن للبكاء. يَقْفز من مكانه، يَطفو الكرسيّ كلعبة مطّاطية ويَسحبه الماءُ بعيدًا. يَعْترض المرأةَ كأنّما يَسْبح:

ـ تسمحين، سيّدتي!

يحاول أن يأخذ مكانَها ليَدْفع الشيءَ الثقيل. تستجيب له وهي تبتسم. شيء ما في أسنانها أو شفتيْها يُفْعم قلبَه بعطر بارد منعش. يضع يديْه فوق الكتلة ليَدْفع بكلّ جهده. يُفاجأ بثقلٍ غير معهود وبلهبٍ رهيب، فيُبْعد يديْه فزعًا، ويَنْظر إليها مستغربًا كأنّما يَبْحث عن جواب. لكنّها تبتسم في غموض، فيتشجّع ليعيد الكرّةَ مضاعِفًا من عزيمته. يَدْفع الكتلة حتى تَجْحظَ عيناه وتَنْتفخَ عروقُ أوداجه. لكنّ الكتلة لا تتحرّك كأنّما أُثبتتْ بالأوتاد، ويَسري في كفّيه جمرٌ ما احترق بمثْله، فيبتعد مرتبكًا.

تتقدّم المرأةُ بثبات، تضع يديْها الناعمتيْن، وتبدأ عملَها، فتطيعها الكتلةُ وتسيح أمامها كقطعة الصابون أو الثلج. ثم تبتعد قليلاً قليلاً. ظهرُها جميلٌ صقيلٌ، وساقاها مضيئتان ومكلّلتان بالنّرجس. وهو محترق، والمكعّبُ السميكُ أمامها يتزحلق، إلى أن توارت في الممرّ العائم المؤدّي إلى اللاشيء.

يظلّ واقفًا مشدودًا مكتويًا غائمًا عائمًا، واللافتةُ الضّوئيةُ أمامه تَلْتهم الأرقامَ المجهولةَ، والرَّجُلان يَعْبران منفعليْن يزعقان بأصواتٍ غير مسموعة، والفقاقيعُ محتدمة، والورقُ يتطاير مزَقًا فيَطفو فوق الماء.

يزداد ارتباكًا. يضمّ بذلتَه على صدره بإحكام. الماء بدا أكثر برودةً من العادة. حاول أن يتذكّر لماذا أتى إلى هنا. الأكيد أنّ شيئًا غايةً في الأهمية هو الذي يَدْفع به إلى هذا المكان. لكنّ الذاكرة المبلّلة لا تُسْعف أحدًا: يَلْزمها شمسٌ وهواءٌ حتى تَصْفو.

---

* ـ كاتبة من تونس

يَعْبر الرَّجُلان، ويتسلَّل هو إلى الممرّ الذي ابتلع المرأةَ الفاتنة. يُبصر فجأةً بياضًا طافيًا فوق الماء ظَنَّه مزقةً من ورق. انحنى ليتأكّد، فإذا هي نرجسةٌ برّاقةٌ سابحة سقطتْ ـ ولا شكّ ـ من ساق المرأة ذات العينيْن الواسعتيْن والظهرِ الصقيل. رقص قلبُه. التقطها بأنامله المبعثرة: سيضمِّد بها الحريقَ الذي خلَّفته الكتلةُ المكعَّبة.

اعترضه الكرسيُّ الأصفر طافيًا، والنبتةُ الخضراء التي لم يستطع أن يميِّز جنسَها وما إذا كانت حقيقةً أم وهمًا. انحنى. اقتطف منها غصيْنًا، قال «أَغْرسُه.» سبح إلى الباب، ففتحه بيسر كالعادة، وخرج يَقْطر كغيمة مرهقة.

بلغ بيته. لم يهتمّ بنزع أثوابه وتجفيفها. تذكّر أنّه كان سيقابل سيّدًا مهمًا بشأنٍ شخصيّ، لكنّه وقتها لم يَذْكر هذا الشيء الشخصيّ. توجّه إلى الحديقة وغرس الغصن بعناية وسقاه. تحسّس جيبَه. أخذ النرجسة. شمّها بروحه ووضعها بإشفاق في آنية البلّور العزيزة. قال: «غدًا سآخذ لها وردًا وشقائقَ وخزامى لتكلِّل شعرَها وذراعيْها.» وتذكَّر لهبَ كفّيه، فارتعش.

في الصباح التالي كان يَدْفع البابَ الزجاجيَّ فلا يندفع، ويَسْحبه فلا ينسحب. كان مستعدًا جدًا لخوض الماء واختراق النار: ملابسُه واقية، ويداه في قفّازين، وسلّتُه ملأى بالورد والشقائق والخزامى.

سأل أوّلَ عابرٍ عن الباب لماذا هو منغلق. أجابه أنّه مصنعٌ قديمٌ، وأنّه مقفلٌ منذ سنوات للترميم.

عاد جافًا جدًا رغم ثيابه الواقية. صقيع قاتل يغزو كفّيْه، وسلّتُه فارغة.

تونس